الرحلة الحديثة

(٥) الى لندن

لم نكد نغادر سواحل اسبانيا حتى بدت آثار النشاط والاقدام التي امتاز بهما سكان الشمال . فعددنا في لحظة عشرة وابورات كبيرة تسير امامنا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وكأن البحر استثقل وطأتها فأرغى وازبد وتململ وجعلت السفينة ترتجف ثم تعلو وتهبط . فأخذتنا الدوار وهرب كثيرون منا الى اسرَّتهم . وحاولتُ الصبر فما استطعت اليه سبيلاً وتذكرت قول من قال ــ

البحر صعب المرام جداً لا جُعلتْ حاجتي اليه
أليس ماء ونحن ضنٌ فما عسى صبرنا عليه

ولما ضاقت اعصابي ذرعاً بحفظ موازنة جسمي لدى حركات غير مألوفة خفت سوء العاقبة فحذوت حذو غيري وهرعت الى سريري واغمضت عينيَّ وانا اللوم لنفسي على اختيار طريق البحر وشعرت كأن قلبي وكبدي واحشائي كلها انفصلت عن جسمي وكادت تخرج من صدري وانا احاول ردها الى مواضعها والسفينة تغوص تحتي في اعماق البحر وتتركني معلقاً في الهواء فأحاول النزل معها وقبل ان اصل اليها تصعد وتدفعني الى العلى ثم ترتجف وتنود يمنةً ويسرةً فتقلقل عظامي . وبينما انا احاول التفكير في بعض المواضيع العلمية لعلي انسى الحالة التي انا فيها اخذتني سنة النوم مجدد القوى ومريح المتعبين ومنجي الانسان من رؤية ما يكرهُ ومتاع ما يسوءُ فلم استيقظ الاَّ وقد غادرنا خليج بسكي وعاد الجو الى سفائه والبحر الى ركوده مائة فقلت عند الصباح يحمد القوم السرى فقد عبرنا في الليلة الفائتة اكبر عقبة في طريقنا من خليج بسكي المشهور باضطرابه وتكاثف ضبابه . وسرنا صباح السادس من الشهر امام مرفأ بليموث من البلاد الانكليزية حيث رست السفينة ريثما نزل منها بعض ركابها وتجلت لنا حينئذٍ بلاد الانكليز وقد اكتست ثوباً سندسياً فلا يبين منها شيء الاَّ طرق المركبات ومدارج الاقدام فمن سهول فسيحة كساها الربيع ثوباً قشيباً فتركت مراعي للانعام ومن حقول يموج زرعها بنسيم الصباح و يبشر بخير يصلح سيئات هذا العام

ومن نهر زرٍّ الربيع لباسهُ عليه كما نشرت وشياً منمَّا

وقد قامت القصور بين تلك الحراج كالانعام في البيداء وارتفعت ابراجها تناطح السحاب وتستنزل الطل من السماء . وظهرت مدينة بليموث في غلالة من الضباب كخود لبست لبسة المتفضل

ولم يكن لنا دقائق حتى برزت البزالة وراشت سهامها فانجلى لنا وجه المدينة وظهرت مبانيها المتسقة ولما رأينا البحر قد عاد الى سكونه وبشرنا الربان ان هذا السكون سيدوم في كل بحر الهند الى ان ندخل مرفأ عدن عزمنا على البقاء في السفينة بعد ما كنا قد وطنا النفس على الخروج منها والسير في اليابسة ولو على الاقدام . وكان كما قال فسرنا بقية ذلك النهار والليل بعده ونحن كأننا جلوس في بيوتنا . واصبح الصباح ونحن امام تلبري فانتظرنا الى ان علا المد واستطاعت السفينة ان تدخل المرفأ المعد لها وكان ذلك نحو الساعة العاشرة صباحاً . ونزلنا الى البر وقلت امتعتنا الى شاطر كبير ورتبت على حسب حروف الهجاء فعرف كل منا امتعته واراها لرجال الجمرك وفتح لهم صندوقاً منها اولم يفتح شيئاً حسب فراستهم فيه ودفع الرسم المعين فتقيد الى محطة من محطات لندن ثم ركبنا القطار فسار بنا الى المحطات التي اردناها . والوصول الى الامتعة في محطة تلبري ومحطات لندن ليس بالامر السهل لكثرة المسافرين وامتعتهم ولكن يجري كل شيء على تمام الهدوء والسكينة والانتظام فلا تسمع صوتاً ولا ترى ضجاً ولا شيئاً تكرهه او تستاء منه . تشير الى مركبة وتقول لسائقها انتظرني فينتظرك في مكانه وتشير الى ثيال فيتبعك ويرهن نفسه لخدمتك فيتناول امتعتك الواحد بعد الآخر ويرصفها على ظهر المركبة ولا احد يزاحمه ولا احد يلتفت اليه ثم تعطيه ما تشاء فيشكرك ويركب المركبة ويقول للسائق خذني الى المكان الفلاني فيأخذك اليه وينزل الامتعة ويأخذ اجرته شاكراً ويتم ذلك كله على غاية الانتظام . ويزيد الامر سهولة ان موقف المركبات داخل المحطة في دقائق قليلة تنتقل الامتعة من مركبات القطار اليها والناس كلهم على غاية الادب والحشمة والركاب حتى ركاب الدرجة الثالثة بثياب نظيفة وهيئات مقبولة لا تكره ان تجالسهم ولو كنت من الامراء

ولقد كان هذا الامر الاخير يؤلمني كلما قابلت احوال السكان في بلادنا باحوال السكان في اوربا فان الناظر الى جمهور الفلاحين في القطر المصري لا يصدق انهُ يرى اناساً يعرفون معنى النظافة فتغمض عينيك حتى لا ترى اكسيتهم وامتعتهم وتسد انفك لكي لا تشم رائحتهم . ومع ذلك لا تستطيع ان تحتقرهم لانهم هم قوام الوطن فدخل البلاد ودخل الحكومة ودخل سكة الحديد من تعب يدهم وعرق جبينهم فهل يمكن ان يتعلموا النظافة ويجروا عليها ومتى يكون ذلك . وهل يمكن ان يتم لهم هذا الامر وهم في نقر مدقع

حينما تقول ان القطر المصري ارتقى واغتنى في السنوات الاخيرة نريد انهُ ارتقى واغتنى بالنسبة الى ما كان عليهِ قبل ذلك لا بالنسبة الى البلدان الغنية المرتقية فان ثمن كل ما يتملكهُ

الواحد منهم نحو اربعين جنيهاً ومتوسط ما يتنكفه الواحد في اميركا ٢٦٣ جنيهاً وفي فرنسا ٣٠٠ جنيه وفي انكلترا ٣٧٥ جنيهاً . الاّ ان النظافة ممكنة ولو كان الانسان فقيراً لانها لا تحتاج الى نفقة كبيرة وما هي الاّ عادة يربى عليها الناس ويألفونها وتربيتهم عليها في الامر الذي نكاد نيأس من الوصول اليهِ الاّ بعد السنين الطوال اي بعد ان ينتشر التعليم في البلاد وتتغير العادات الموروثة عن الآباء والاجداد

كان معنا كثيرون من سكان استراليا فان السفينة ابتدأت سفرها من هناك في رجوعها الى انكلترا وقد حادثناهم عن احوال تلك البلاد فاخبرونا ان السنوات الاخيرة كانت سنوات خير ورخاء تجادت السماء بامطارها والارض بخيراتها وكثرت المعادن المستخرجة وربح الناس من كل عمل لكنهم يخافون ان تنتاب البلاد سنو المحل فتحبس السماء مطرها وتجدب الارض كما يحدث مراراً ولذلك يهتمون الآن بانشاء خزانات كبيرة يجمعون فيها مياه الامطار لكي يستعملوها اذا انحبس المطر . وسألتهم عن السكان الاصليين فقالوا انهم انقرضوا او كادوا ينقرضون ولم يتحضّر احد منهم ولا استفادوا من العمران شيئاً . وسألتهم عن قصة الميوده رجون التي ترجمتها عن الانكليزية ونشرت في المقتطف فاكدوا لي انها تلفيق من اولها الى آخرها ولو كان اكثر الوصف الذي فيها منطبقاً على احوال البلاد وسكانها الاصليين وان الميوده رجون ذهب الى استراليا حديثاً ليخطب فيها عن احوال السكان الاصليين فلم يلتفت اليهِ احد لانهم يعرفون من احوالهم اكثر مما يعرف

ووصلنا مدينة لندن بعيد الظهر ونزلنا في اقرب نزل الى محطة فكتوريا وهو نزل غروفنور ووجهتنا مدينة ايستبرن لقضاء جانب من فصل الصيف فيها لانها من مصايف الانكليز المشهورة

واول من قابلناهم في مدينة لندن الصديق القديم الدكتور حنا دخيل وقد رأيت انهُ اقتصر على تطبيب امراض الاذن والانف والحلق فبرع في ذلك براعة فائقة ولهُ طرق مخصوصة في معالجة هذه الآفات وقد شفى كثيرين من المصابين بها او من الذين فقدوا السمع تماماً وقطع اطباء الاذن في انكلترا والمانيا الامل من شفائهم وبعضهم من اكبر سراة الانكليز وجاء كثيرون منهم وشهدوا لهُ في محكمة انكلترا في القضية التي اقامها على لابوشير المشهور فان لابوشير كتب في جريدتهِ "تروث" كتابة تعد قدحاً بطريقة العلاج التي يجري عليها الدكتور دخيل فشكاهُ الدكتور دخيل والتجأ الى لابوشير كثيرون من مشاهير الاطباء فجادلهم الدكتور دخيل في مجلس القضاء والخصم فاقتنع القاضي والمحلفون بصحة طريقتهِ وحكموا لهُ

وقد رأيت انه اصلح الخزان الكهربائي واضاف اليه اضافات كثيرة فصار اصلح خزان لاستعمال الكهربائية في الطب لانهُ جعلهُ بحيث يمكن استعمال المجرى القوي او الضعيف حسب استطاعة المريض على احتمال الكهربائية وحالة مرضهِ . ولم اذكر هذه الامور الّا لانها تدلُّ على مقدرة الشرقي اذ اجتهد وتيسرت لهُ الوسائل

ويظهر لي من اقوال الذين كلموني في المسألة المصرية من الانكليز انهم صاروا يحبون مصر من مستعمراتهم يسألون عن احوالها في مجلس النواب كما يسألون عن مستعمرة انكليزية وهذا الامر قدَّرتهُ من حين وُكّل بعض نواب الانكليز بالسؤال عن احوال مصر في مجلس نوابهم فان الذين وكّلوهم من المصريين لم ينتهوا الى ان عاقبة ذلك على ضد ما املّوا . ولكن لا حيلة بيد ما فات ولعلهُ الأصلح حالاً ومآلاً ولو لم يكن مطلوباً

" فكم قد رأينا من تكدر عيشة واخرى صفا بعد اكدرار غديرها
وكم طامع في حاجة لا ينالها ومن آيس منها اتاهُ بشيرها "

ومدينة لندن على ما رأيتها في زيارتي الاولى لما يطلع الصباح فتشرق الشمس بهائها ثم يستيقظ السكان و يشعلون النيران فيسردق الدخان فوق المدينة ويحجب اشعة الشمس عنها الى قرب الظهيرة . وقيل لي انهُ مضى ما يرون تظهر الشمس الاَّ نادراً . وقد رأيت تغييراً كبيراً في شوارع المدينة ومركباتها فزادت الشوارع نظافةً بعد ما فرشت بالخشب او بالاسفلت وقلّت مركبات الخيل منها وزادت المركبات الكهربائيةُ ولعلها انظف مدينة في الدنيا على كثرة سكانها

(٦) اكرام اللورد كرومر

ذهبت اليوم الى مدينة لندن لاشغال اقنيها فرأيت الذين يهتمون بمصر والمسألة المصرية ساخطين على بعض الاعضاء الارلنديين الذين ابدوا عدم رضاهم من رسالة الملك التي قرئت البارحة في مجلس النواب طالبًا فيها ان يعطى اللورد كرومر خمسين الف جنيه " اعترافاً بخدمهِ الجليلة " حتى اصدقاء هؤلاء الاعضاء الذين يدافعون عنهم قالوا لي انهُ لم يكن غرضهم الانتقاد على سياسة جناب اللورد بل الانتقاد على اعطاء الاموال لرجال الحكومة بعد ان يكونوا قد تقاضوا رواتبهم القانونيةَ فجادلتهم في ذلك وقلت لهم ان عظمة الممالك التي يستفيد منها كل واحد من الرعية يأتي اكثرها على يد بعض الافراد من رجالها فهؤلاء جديرون بالاكرام الفائق والجزاء الذي لا يجازى به عامة الناس اعترافاً بفضلهم وترغيباً لغيرهم في الجري على خطتهم . فاذا كانت الامة الانكليزيةُ تكتسب كل سنة التناطير المقنطرة من

امتلاك الهند وترويج تجارتها فيها فالفضل في ذلك للافراد القلائل الذين مكّنوها من تلك البلاد. وهل يجوز في شرع ان المالي الجالس في لندن او منشستر او برمنهام يكتسب كل سنة مئة الف جنيه من بلاد الهند والقائد الذي وضع رأسهُ في كفهِ وخاطر بحياتهِ لامتلاك تلك البلاد لا يجازى الاَّ بلقب يزيد نفقاتهِ فيشيخ وهو افقر مما كان في شبابهِ وهل تستكثرون ان نقدموا الطعام والشراب والميرة للجيش ليكتسب الواحد منكم الوف الجنيهات بل مئات الالوف والملايين والقواد الذين يقودون ذلك الجيش يعود الواحد منهم بيد مقطوعة او عين مفقوءة او يعيش بقية عمرهِ سقيماً ان لم يقتل في سورة الوغى ويرى اولادهُ في الفقر. ثم ذكرت لهم قصة تاجر مصري من بائعي السكاير ربح من حملة الترنسفال نحو عشرين الف جنيه في سنة واحدة وابنت لهم انهُ لو اراد اللورد كرومر ان يشتغل اشتغالاً مالياً في مصر مدة اقامتهِ فيها كما اشتغل غيرهُ من رجال الانكليز او من سائر الاوربيين او من الشرقيين عموماً لخرج منها بمليون جنيه على الاقل وقلت لهم أتضنون بهذا الجزاء القليل على من خدم القطر المصري خدمة لا مثيل لها في تاريخهِ وخدم امتكم اعظم خدمة ادبيَّة ومادِّيَّة ايضاً ان كان لحفظ طريق الهند شأن عندكم. فأيدوا كلامي موافقين عليهِ

وقد راجعت جرائد المشارفين من الاحرار ومن المحافظين فوجدتها كلها مصوبة تقديم هذا المال الى جناب اللورد محطمة العنصر الارلندي الذي قال انهُ سيعترض على ذلك يوم المناقشة فيهِ. وجرائد المحافظين تتمتم كل فرصة لتحطمة الوزارة الحاضرة في كل اعمالها وتقترحاتها ولكنها مدحتها على اعترافها بفضل اللورد كرومر وهي وجرائد الاحرار كأنها تستعطف اللورد كرومر لكي لا يلتفت الى ما اظهرهُ بعض الاعضاء الارلنديين من عدم الرضى واعتذرت جرائد الاحرار عنهم بان غايتهم انتقاد المبدإ لا غير

وقد كثر تحدث الانكليز بامر الصورة التي اشترتها الحكومة الانكليزيَّة بثلاثة عشر وخمس مئة الف جنيه وهي من تصوير فان ديك المشهور وقالوا انها أخرجت من ايطاليا خلسة ولا بد ان تطلب الحكومة الايطالية ردها اليها وقال غيرهم انها منقولة عن صورة اقدم منها والصورة الاولى موجودة الآن في البلاد الانكليزية وعليها تاريخ تصويرها وهو قبل ولادة فان ديك وتناقلت الجرائد اليومية هذه الاشاعات فاقبل الناس على مشاهدة الصورة اقبالاً لا مثيل لهُ. وقد شاهدتها اليوم وهي نصفية بقطع طبيعي تمثل رجلاً عريض الجبين خفيف شعر الوجه لا تكاد ترى منهُ غير رأسهِ ويديهِ لان لباسهُ اسود وما حولهُ اسود مثلهُ وعينهُ اليسرى اكبر من عينهِ اليمنى. ويقول النقاد في فن التصوير ان هذه الصورة من اتم

الصور ومن اجلها وان الصورة التي وجدت في بلاد الانكليز منقولة عنها والتاريخ الذي عليها مصطنع وفي دون الاصل بمراحل

ورأيت للناس اهتماماً بالمسألة المالية المصرية وهم واثقون بما قالهُ سعادة بوطرس باشا نوبار يوم انزال الباخرة القاهرة من ان ثروة مصر الحقيقية قائمة باطيانها وهذه لم تتأثر من الحالة المالية الحاضرة بل زادت غلاء لارتفاع اسعار القطن وسألني بعضهم عن ايجار الفدان عندنا فقلت لهُ ان ايجار الفدان من الاطيان الجيدة قد يبلغ خمسة عشر جنيهاً فتأوَّهَ ثم قال انتم تأخذون خمسة عشر جنيهاً اما نحن فلا نأخذ خمسة عشر شلناً ايجار الفدان من اطيانا

والظاهر من كلام الناس ومن اقوال الجرائد انهُ لم يبقَ للمسألة المصريَّة السياسية شأن كبير هنا . ولولا استعفاء المسيو لبيرما ذكرت مصر في هذه المدة اما استعفاؤهُ فقد فصَّلهُ لي سعادة امين باشا سامي ونحن آتون من مصر ويظهر من كلامهِ ان ليس لجناب المستر دانلوب اقل شأن في هذا الاستعفاء بل جاء على حد وغبتهِ وان وقع فيهِ شيءٌ من الخطإ او سوء الفهم فيكون اللوم على الكاتب وعلى تعجُّل المسيو لبير لا غير

ايستبرن في ٣٥ يوليو سنة ١٩٠٧

(٧) منشستر والسوريون

رأيتُ ان اقضي جانباً من هذا الصيف في بلاد ويلس فانها جبلية طيبة الهواء جميلة المناظر . كنتها الطيبة ثوباً شتيباً من لبالب عانقت صخورها عناق العاشق الولهان . وادواح بواسق نثنت في وهادها نثني الغواني الحسان . ومروج تناسقت فيها طرائق الزروع والبقول . ووشتها الازاهر بطراز معلم ينثن حسنهُ العقول . وطعنت رؤوس جبالها في البحر فانضحت بينها الاجران والملحان . وقامت عليها المدن والدساكر تتجلى بابهى حلل الحضارة والعمران

فقصدتها بعائلتي من مدينة ايستبرن ومررنا في طريقنا اليها على مدينة منشستر دار المنسوجات القطنية التي افاضت ينابيع الثروة على البلاد الانكليزية . وقد كنت احسب اني لا ارى في هذه المدينة غير المعامل والمخازن — معامل غزل القطن ونسجهِ ومخازن رزمهِ وحزمهِ . شوادر كبيرة لا ينظر فيها الا الى السمة لايواء المال — وخزن البضائع والدخان مسرودقٌ فوقها سحائب كثيفة لا تخرقها اشعة الشمس ولا تمزقها عواصف الرياح . فاذا انا بمدينة جليلة دورها تناظر قصور لندن و باريس وبيوتها التجارية صروح مشيدة من المرمر او الحجر المهيب او الخزف المدهون كأنهُ من مباني الصين . والابنية العمومية كالبنوك

والاندية والبورصة والمجلس البلدي ودار البريد والفندق المعروف بالمندلسر تصور بداخلها ميك بفندق المدلند فانهُ آية البناء والزخرفة خارجهُ بالمرمر الصناعي الصقيل وداخلهُ بالرخام والسيني ولا غروَ فان نفقات بنائهِ وفرشهِ بلغت مليوناً وربع مليون من الجنيهات على ما قيل

وناهيك بدار البورصة فانها فاقت كل المباني التي من نوعها في اتساع رواقها وحسن رواتها وما شيدت بهِ من المرمر الثمين فهي تنطبق على ما شيدت لهُ لانها دار لاكبر الاشغال المالية

اما الدخان وانتشارهُ فوق المدينة ولاسيما في الصباح والمساء فعلى ما اشطرتُ وتقدجار على مبانيها فالبسها ثوب الحداد الاَّ ما جدَّ منها في الاعوام الاخيرة . ولكن الدخان اخف من الغبار الذي مبنينا بهِ في الديار المصرية واقل منهُ ضرراً او لا ضرر منهُ واما الغبار فلا جدال في ضررهِ

ولما كانت اقامتي في هذه المدينة قصيرة لم أعنَ الاَّ برؤية مدرستها الجامعة ومكتبتها العمومية

اما المدرسة وهي المعروفة بمدرسة اونس او كلية فكتوريا بمنشستر فقد انشأها المستر جون اونس احد تجار هذه المدينة بمئة الف جنيه وهبها لها منذ ستين سنة . واغنياء الانكليز وكل اغنياء اوربا واميركا يعرفون كيف يخلدون ذكرهم ويفيدون اوطانهم بانشاء المدارس والمكاتب والمستشفيات وما اشبه كأنهم يقولون ما قالهُ الطائي

اماوي ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكرُ

او ما قالهُ ابو الطيب

ذكر الفتى عمرهُ الثاني وحاجتهُ ما فاتهُ وفضول العيش اشغالهُ

ومن لنا بترسيخ هذه الحقيقة في اذهان اغنيائنا حتى نرى منهم من يجود للجامعة المصرية بمثل ما جاد بهِ جون اونس في زمانهِ فيكسب الذكر والاجر . لكن مئة الف جنيه لا تكفي لانشاء مدرسة جامعة والاتفاق عليها فتوالت هبات المحسنين على مدرسة منشستر وقطعت لها الحكومة الانكليزية عشرة آلاف جنيه او اثني عشر الف جنيه في السنة لتستعين بها على نفقاتها الكثيرة لان نفقة المدرسة الجامعة قلما تنقص عن ثلاثين الف جنيه في السنة

ولم تمكني الفرصة الآن الاَّ من مشاهدة متحفها وهو متحف منشستر فيهِ الامثلة والآثار الجيولوجية والبليونتولوجية والمعدنية والحيوانية والنباتية والتاريخية . وقسماهُ الجيولوجي والمعدني اتم من غيرهما ولاسيما ما يتعلق منهما بالفحم الحجري وطبقاتهِ والنباتات التي تكوَّن منها . والمتاحف العلمية كثيرة في كل مدائن اوربا وفي مدارس الشعب متعلقون فيها بالنظر

والمشاهدة ما يتقدمهم نحلة في المدارس فتتسع معارفهم ولذلك تراهم اقدر من غيرهم على المباراة في ميدان الحياة

وفي هذه المدرسة مكتبة عمومية كبيرة فيها نحو ٩٦ الف مجلد اي ثلاثة اضعاف ما في المكتبة الخديوية من الكتب

ومنشستر وان كانت مدينة تجارية مشهورة بطائفة من العلماء والفضلاء مثل دالتن الكيماوي وجول الطبيعي وجون بريط السياسي ولذلك تراها تفتخر بهؤلاء الرجال وتنصب تماثيلهم في كل ساحاتها ودورها العمومية تخليداً لذكرهم وترغيباً لابنائها في الاقتداء بهم وتماثيلهم منصوبة في هذه المدرسة كما في منصوبة في غيرها

واما المكتبة العمومية فمن اوسع المكاتب على حداثة عهدها فانها انشئت منذ خمس سنة وفيها الآن ستة وخمسون الف مجلد عدا مكتبة المكاتب التي اضيفت اليها حديثاً وفيها عشرة آلاف مجلد وهذه وحيدة في بابها لان موضوعها محصور في المكاتب وانشاء الكتب وطبعها وتصويرها وتجليدها وفيها امثلة كثيرة من ذلك تبتدئ في قدمها الى المكاتب الاشورية والبابلية التي كانت على صفائح الخزف وتنتهي في العصر الحاضر وتشمل كل لغة ولسان على وجه البسيطة

ويتصل بمكتبة منشستر مكاتب كثيرة منتشرة في كل انحاء المدينة وضواحيها حتى يسهل على السكان كلهم الوصول اليها والانتفاع بها وقد تكرم مديرها الفاضل المستر سنن C. W. Sutton فاراني غرفها المختلفة واطلعني على احصاءات كثيرة يعلم منها عدد المترددين عليها وعلى المكاتب المتفرعة منها وعدد الكتب التي تستعار منها سنوياً . ويظهر من هذه الاحصاءات ان عدد الكتب في هذه المكتبة وفروعها بلغ سنة ١٩٠٥ نحو ٣٦٠ الف مجلد وعدد الكتب المستعارة بلغ تلك السنة ٢٣٩٧٠٣٩ اي ان القراء كانوا يطالعون يومياً في نحو ١٨٠٠ مجلد وبلغ عدد القراء في المكتبة العمومية وحدها ٣٨٤٠٣١ . واكثر الكتب التي طالعوها في العلوم والفنون وتليها كتب الادب ثم كتب التاريخ والسير والرحلات ثم كتب اللاهوت والفلسفة . وقد استغربت اقبالهم على كتب العلوم والفنون لان الغالب في المكاتب العمومية ان تقرأ القصص والروايات اكثر من سواها فاقبال اهالي منشستر على مطالعة الكتب العلمية من ادل الادلة على ارتقائهم او حبهم للارتقاء العقلي والادبي

ولقد كان من نصيب فريق من وجهاء السوريين ان نزلوا هذه المدينة وفتحوا فيها البيوت التجارية لتوريد البضائع الى اخوانهم في سورية ومصر وفي كل البلدان التي هاجر السوريون

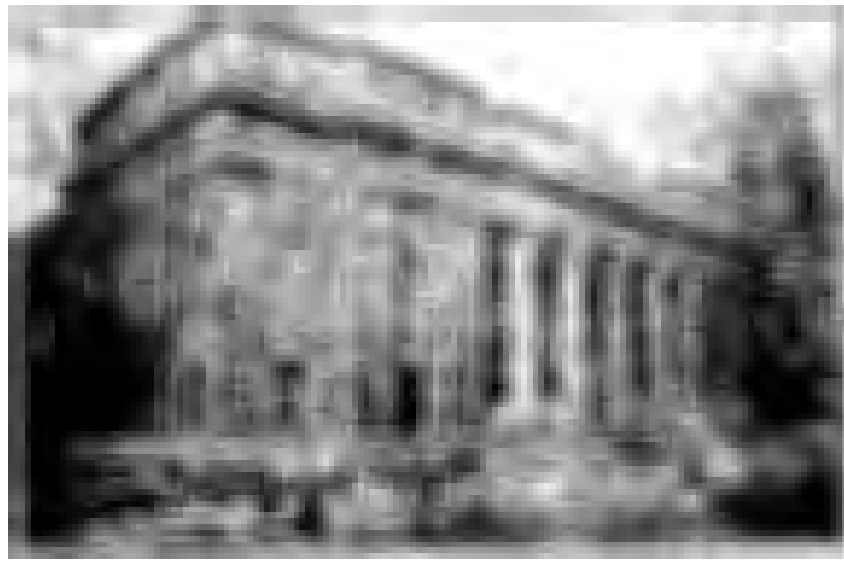

مكتبة منستر العمومية من الخارج

مكتبة منستر العمومية من الداخل دار المطالعة

اليها من اقصى الشمال الى اقصى الغرب . واول من قابلته منهم الصديق العزيز اخواجه يوسف غبرين فرأيت في مخزنه وبيته ومعاملة الانكليز له ما يخبرك كل شرقي فترى المستخدمين في مخزنه من الانكليز وهم يقيدون الحسابات ويكتبون المكاتيب ويحزمون البضائع والخدم في بيته من الانكليز ايضاً وهم يسوسون الخيل ويطبخون الطعام ويربون الاولاد وترى هناك الجوائز الكثيرة التي اكتسبها بياراته للانكليز في سباق الخيل والالعاب الخفيفة اوقاتها اولاده في مدارسهم . وهو في محاكم الانكليز ومحافلهم مسموع الكلمة مرفوع المقام مثل نخبة الانكليز انفسهم وهذا شأن كل الذين في منشستر من السوريين فانهم يباهون الانكليز في اشغالهم التجارية واولادهم يباهون اولاد الانكليز في مدارسهم واخص منهم بالذكر مصطفى بك الخرسا وكمال باشا غيش والخواجات ريحان ومجدلاني وشيحا وشقير ودقي وجريديني وجباره وحوراني وعزروت

قلت ان السوريين نزلاء منشستر تشبهوا بالانكليز وقد فعلوا ذلك مصداقاً لقول من قال " ان التشبه بالكرام فلاح " . والظاهر ان هذا التشبه لا بدَّ منهُ لمجاراة الامم الراقية فقد رأيت فُبَيِّل كتابة هذه السطور صورة فوتوغرافية تمثل الكولنل اوكي الياباني سفير اليابان في المانيا وابنتهُ وزوجها وهو المالي وكلهم بالملابس الاوربية وترى صورة الكولنل فتظنهُ من شيوخ الاوربيين فلا الجنس ولا المذهب منعاهُ من ان يلبس الثياب الاوربية او يزوج ابنتهُ لرجل اوربي . ولا يرى الاوربيون الآن ان اليابانيين دونهم في شيء من الاشياء بل تراهم يخطبون ودهم ويعترفون لهم بالسبق في امور كثيرة ويتطلون منهم ويفتخرون رؤساء مدارسهم ان فلاناً الياباني تعلم فيها . وقد رأيت قبيل ذلك منظراً آخر وسمعت كلاماً وجيز اللفظ كبير المعنى بيين لنا علة تأخر شرقنا الادنى بعد ان كان مهد العمران . كنت آتياً الى مدينة لندنو وهي من ضواحي منشستر فلما خرجت من القطار رأيت امامي جماعة من التونسيين نزلاء منشستر وهم بالجبب والعمم فانست بهم وحييتهم بالعربية فردوا التحية بمثلها واول كلمة قالوها لي « هل انت مسلم » . فوقفت مبهوتاً وقد خطر على بالي قول ابي محجن الثقفي الذي قال

لا تسألي الناس عن مالي وكثرته وسائلي الناس عن ديني وعن خلقي

يشير بالدين وهو الكبير المحدود القائل

اذا متُّ فادفني الى اصل كرمة تروّي عظامي في التراب عروقها

ألا ان التعصب الديني الذي خرب الشرق لا يزال يتبعنا اينما ذهبنا . فهلاَّ علمنا ان الدين عند الله المعاملة . ويقال انهُ مضى زمن على هؤلاء التجار وهم في منشستر ولم يكثفوا بالبقاء

على تعاداتهم من حيث الأكل والشرب والملبس بل قد يخرج الواحد منهم من بيته ويحبس زوجته في غرفة من غرف البيت ويقفل بابها ويضع المفتاح في جيبه . والنساء نصف الامة كما لا يخفى فامة تعمل نساؤها هذه العاملة تخسر نصف قوتها العقلية والجسدية . وقد قرأت بعيد ذلك ان جنود المغرب الاقصى الذين خرجوا لاقتفاء اثر القائد مكلين خلعوا ثيابهم العسكرية لانها من ملابس الكفار ولبسوا البذلة منها ببضعة ملات والتفوا بالبرنس المغربي . اللهم ابعث الينا رسلاً من اليابان ليعلمونا كيف نباري الاوربيين

الا ان ما ذكرته عن التجار التونسيين لا يمس آدابهم الشخصية ولا يتعدى الى معاملاتهم التجارية فانه لم يبلغني عنهم من هذا القبيل الا انهم اهل جد ونشاط وادب كامل وعسى ان يفيقوا الى ذلك الاعتقاد الراسخ ان الدين عند الله المعاملة

النجاح الغريب

يقف المرء حائرًا مبهوتًا كلما علم ان انسانًا كان بالامس فقيرًا معدمًا فاصبح اليوم يعد من الاغنياء . ومن ثم يسأل عن اسباب نجاحه المالي ويسره ان يقف على سر ثروته لعله يقتفي خطواته

وكما ان نجاح الفرد يستهوي الهمم ويستثير العزائم من مكامنها ويدفع ببعض الرغائب الى تحدي الناجحين في ما يظنونه سر نجاحهم هكذا يجب على الامم والجماعات ان تقتدي بمن سبقها من امثالها في سبيل الارتقاء

اعتبر ذلك بما كان من ارتقاء الولايات المتحدة الاميركية فانها حديثة العهد في الوجود السياسي والادبي ولم يكن لها من قبل استقلالها شأن يذكر في العلم والتجارة والثروة والصناعة اما وقد نالت بعد ذلك لبين حريتها وتألفت دولة فانها اخذت تجمع معدات رقيها واستمدت من اوربا مناهج عمرانها اما بتقليدها اوربا حين اليها المهاجرون الراحلون من العالم القديم اليها فنمت وازدهت

ومع ان سكان الولايات المتحدة ليسوا شعبًا بل امة تراهم كلهم يندفعون الى نصرة بعضهم بعضًا والعمل بما يعزز شأنهم حتى كأنهم لم تمام النجاح

قلنا ان السكان ليسوا شعبًا لان الشعب على ما في كلمات ابي البقاء كل جماعة كثيرة من الناس يرجعون الى اصل مشهور بامر زائد فهو شعب والحال ان سكان الولايات من شعوب شتى فلا يطلق عليهم اسم الامة لانها تطلق على كل جمع من الناس لم يجامع من دين او زمان او مكان او غير ذلك